

المبحث الأول الشعر والشعراء

أولاً. الشعر في العصر الأموي:

لا بد لدارس الشعر الأندلسي في عصوره الأولى أن يقف بادئ ذي بدء على المؤثرات التي خضع لها الأدب بشكل عام، حيث يرى حكمة الأوسي أن أبرز ظرفين خضع لهما الأدب في القرن الثاني الهجري يتمثلان في:

١. الظروف التي كانت سائدة في الأندلس تلك التي اتسمت بالاضطراب والتنافس بين القبائل العربية المختلفة وقبائل البربر فضلاً عن الاستمرار في عمليات الفتح ومحاربة الأسبان.

٢. التأثير المشرقي وذلك لأن أكثر سكان الأندلس كانوا من النازحين عن بلاد المشرق. وكانت مخيلتهم تحفظ ذكريات عميقة الأغوار عن بلادهم التي غادروها، حيث تذكروا الأهل والخلان، واشتاقوا إلى الصحب والأوطان، ولذلك عبققت أشعارهم بمشاعر فياضة، ودموع سخينة، ذرفوها كلما تآقت أنفسهم إلى تلك الربوع، ولقد بقيت المؤثرات المشرقية، موصولة ببلاد الأندلس، إلى مطلع القرن الرابع الهجري، حيث نلمح سمات نضج واكتمال في الشخصية الأندلسية وأما في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فإن الرحلة من المشرق إلى الأندلس، وبالعكس كانت الورد الذي يروي الحضارة الأندلسية الناشئة.

ومن السمات الواضحة في الشخصية الأندلسية، مما ينعكس على الشعر الأندلسي عدم انصهارها وتوحيدها مع البيئة الجديدة، والمجتمع الجديد، كذلك يلاحظ انصراف الأندلسيين عن الثقافة وتفرغهم للحروب والجهاد في سبيل الله حيث أشار بالنثيا إلى أن الداخلين إلى الأندلس من العرب كانوا جميعاً من المحاربين.

إن قلة ما وصل بين أيدينا من نصوص شعرية كان بسبب الضياع والفقدان إذ ليس من المعقول أن ينحسر الشعر هذا الانحسار في التعبير عن حياة الجهاد والحروب في الأندلس، ومن النصوص القليلة التي عبّرت عن هذه الحقيقة أبيات أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبلي، الذي كان يلقب بعنترة الأندلس، وكان قد شهد فتوح المسلمين بأفريقية قوله في الثأر الذي أخذه لعزيم من قومه:

١ فصول في الأدب الأندلسي، ٣٨.

٢ تاريخ الفكر الأندلسي، ص ١.

٣ جذوة المقتبس، ص ٢٠٠. الأدب الأندلسي، ٦٦.

فليت ابن جّواس يخبر أني
قتلتُ به تسعين نحسبُ أنهم
ولو كانت الموتى تباعُ اشتريتهُ
سَعَيْتُ به سعيَ امرئٍ غيرِ غافلٍ
جدوع نخيل صُرِّعت بالمسايِلِ
بكفِّي وما استثنيت منها أناملي

ومن ذلك أبيات لابن قُلم يخاطب ابن أبي عبيد (ت ٢٨٧هـ) وذلك في حربه لابن حفصون الذي تآزر مع الأسيان:

ففي كل صيف وفي كل مشتي
فتلك تبيدُ العدو وهذي
غزاتان منك على كل حالٍ
تفيدُ الإمام بها بيت مالٍ

ومن الموضوعات التي نظم فيها الشعراء في هذا العصر، الشوق والحنين إلى بلاد المشرق وبين أيدينا أبيات تنسب لعبد الرحمن الداخل سنقف عندها في موضع آخر من هذه الدراسة.

ويشير حكمة الأوسي إلى ضرب ثالث من الشعر ذلك الذي صور لنا بعض الكوارث الطبيعية، منها القحط الشديد الذي نزل بالأندلس سنة ٢٧٥هـ حيث استسقى الناس مراراً حتى ارتفع البأس فقال الشاعر العكي أبياته مصوراً تلك الحالة، يخاطب بها المنذر بن محمد:

نزل الحيا المحيي وطابت أنفس
أحيا الإله عباده من بعد ما
متلافيا فيه بعائد رحمة
مليك الملوك تقدست أسماؤه الـ
إذ كان سوء الظن فيها يهجنُ
كادت من القنط النفوس تُوسوس
لولا عوائدها طوتنا الأبؤس
حسني، وعزّ جلاله المتقدس

وأمثال هذه النوازل الطبيعية كثير، فمن ذلك المجاعة التي حصلت بعد القحط المتقدم ذكره بعشر سنوات سنة ٢٨٥هـ وكان شديداً جداً بحيث جعل الناس يسمون السنة بها سنة "لم أظن" وليس من المعقول ألا يقال فيها شيء ويتساءل الأوسي فيقول: "فالذي يقول شعراً في مطر يهطل بعد انقطاع وقحط، ألا يقوله في مجاعة تعم فتضطرب لها النفوس، ويخامر الناس القنوط؟".

أما عبد الله كنون فيرى أن أكبر مميزات الشعر الأندلسي التي تطالعنا أنه شعر حضري لا جاهلية له، وليس يُشبهه في ذلك شعر قطر من الأقطار العربية. ولعل مرجع ذلك في البلاد العربية إلى جساوة في الطباع، وقساوة في البقاع، فإن الإقليم في الشرق، غيره في الغرب ولا سيما الأندلس والمزاج يتكيف بتكيف الإقليم رقة وغلظة، وليناً وشدة، ويخلص إلى القول بأن الشعر الأندلسي بقي مصنوعاً من عنجبية البدو، لا

١ البيان المغرب، ١٣٩/٢. وينظر فصول في الأدب الأندلسي، ٤٠.

٢ البيان المغرب، ١١٩/٢. وينظر فصول في الأدب الأندلسي، ٤١.

٣ البيان المغرب، ١٣٩/٢.

٤ فصول في الأدب الأندلسي، ص ٤١.

جاهلية له مطلقاً^١.

أما الرافعي فيبرى أن شعراء العصر الأول بالأندلس أمثال أبي الخطار، والصميل، وأبي الأجر جعونة، قالوا شعراً على مذهب الأوائل من جاهلية العرب،^٢ لكنّ كنوناً ينكر أن يكون هؤلاء.. من شعراء الأندلس! لأنهم كانوا من الطائفة الأولى التي نزحت إلى الأندلس، ولأنهم لم ينشأوا فيها ولم يؤثروا فيمن أتى بعدهم.^٣ ومن المحدثين يجعل أحمد هيكل أبرز سمات الشعر في عهد الخلافة مركزة في خمس:

أ. ظهور الاتجاه المحافظ الجديد ويريد به الاتجاه المضاد للاتجاه الحديث الذي تزعمه أبو نواس.

ب. تطور الاتجاهات السابقة، المحافظ المحدث والشعبي.

ج. تسرب بعض الأفكار العلمية، على نحو ما نجده في أبيات ابن عبد ربه التي يناقض فيها فكرة مسلم بن أحمد ابن أبي عبيدة الفلكي المعروف بصاحب القبلة (ت ٢٩٥هـ) وذلك في قصيدة ينكر فيها كروية الأرض، وهي من الأبيات الطريفة التي تنبئ عن التقدم العلمي الذي أحرزه علماء الأندلس:

أبا عبيدة ما السؤال عن خبر	تحكيه الاسواء والذي سألا
أبيت إلا شذوذاً عن جماعتنا	ولم تُصب رأي من أرجى ولا اعتزلا
وقلت أن جميع الخلق في فلك	بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كروية حفّ السماء بها	فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلاً
صيف الجنوب شتاً للشمال بها	قد صار بينهما هذا وذا دولا

د. الازدواج اللغوي، وذلك بانتقال بعض الألفاظ من عامية الأندلس الرومانثية إلى الشعر الفصيح، وهي ظاهرة لا تقتصر على هذا العصر بل تتصل بالعصر المديد الذي عاشته الأندلس، وقد أشرنا إلى هذه الظاهرة حين درسنا خصائص العربية الأندلسية.

هـ. تصوير العهد الذهبي في جانبيه الرسمي وغير الرسمي فيما صوره الشعراء في أشعارهم خلال عهد الخلافة حيث بلغت عهدها الذهبي على نحو ما جاء في أبيات المنذر بن سعيد البلوطي، في تصوير سفارة الروم.. أو المناسبات المماثلة أما الجانب

١ الشعر الأندلسي، مجلة المجمع العلمي العربي، ٣١/٢/٣٧١.

٢ تاريخ آداب العرب، ٢/٢٥٩.

٣ الشعر الأندلسي، مجلة المجمع العلمي العربي، ٣١/٢/٣٧١.

٤ الأدب الأندلسي، ١٩٨، ٢٢٦.

٥ تاريخ علماء الأندلس، ١٢٦، رقم ١٤٢٠. والقول بكروية الأرض قال به علماء المأمون العباسي (١٩٨).
٢١٨هـ) لكن الفكرة جاءت هنا بصيغة الشعر.

غير الرسمي، فيتمثل في موضوعات الشعر التقليدية التي تعرب عن التقدم في هذا العصر.

أما سعد إسماعيل شلبي فيصنف الأدباء الذين وصلت آثارهم الشعرية إلى ثلاث طبقات منطلقاً من الطبقات التي اشتغلت به وهي:

١. الأمراء، والمراد بهم أمراء الأندلس وحكامها.

٢. الفرسان ومنهم سعيد بن جودي والصميل.

٣. الشعراء والمراد بهم الشعراء الذين تفرغوا لقول الشعر وانصرفوا إليه^١.

وإذ يقرر بدير متولي حميد قلة مصادر الشعر الأندلسي في عصوره الأولى، وقلة الدراسات فيه، وغلبة السمة المشرقية عليه، يؤكد لنا أن ظروف الأندلس الأولى كانت صارفاً للعرب عن الاتجاه نحو البيئة الجديدة، فلم يحسوا جمالها ولم يتأثروا بها^٢. ومن هنا يخلص الباحث إلى صورة مصغرة للأدب الأندلسي. بشكل عام. في عصوره المتقدمة وهذه الصورة ستوضح أبعادها كلما وقفنا على مزيد من النصوص، والوثائق التي لم يصل منها إلا التثر اليسير.

وفيما يلي سنتوقف عند أبرز ثلاثة شعراء في هذا العصر هم:

١. عبد الرحمن الداخل ٢. يحيى الغزال ٣. ابن عبد ربه.

١. عبد الرحمن الداخل (١١٢. ١٧٢هـ):*

إذا كان الشعراء يحتاجون إلى تعريف، فمن من أبناء العربية لا يعرف الأمير الشاعر، وقد ذاع من أخباره وأنبائه، ما سار مسار الأمثال، في مضمار الشجاعة والبأس؟

نشأ في كنف جده هشام بعد موت أبيه معاوية، وهو صغير السن، وما كاد يشب عن الطوق، وقبيل بلوغه سن العشرين حتى سقطت دولة الأمويين، وأخذ العباسيون يتعقبون من بقي من بيت الحكم الأموي، وفر عبد الرحمن بسبب ذلك إلى المغرب، ثم أخذ يوطد لنفسه الأمور، ويستعيد مجد آبائه حتى تكلفت محاولته بالنجاح بعد حوالي خمس سنوات من فراره وذلك سنة ١٣٨هـ.

لقد روى عبد الرحمن قصة فراره من الموت الزؤام، حين قدم بنو العباس يبحثون

١ ابن حمديس الصقلي حياته من شعره، د. سعد إسماعيل شلبي، ص ٣٤، مكتبة غرب، ١٩٧٧.

٢ قضايا أندلسية، ٧.

* ينظر في ترجمته: أخبار مجموعة، ٤٩ وما بعدها. الحلة السيرة، ١/٣٥. ٤٢. البيان المغرب، ٢/٤٧. ٦١. تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ٤/٨١. ٨٣.

غير الرسمي، فيتمثل في موضوعات الشعر التقليدية التي تعرب عن التقدم في هذا العصر.

أما سعد إسماعيل شلبي فيصنف الأدباء الذين وصلت آثارهم الشعرية إلى ثلاث طبقات منطلقاً من الطبقات التي اشتغلت به وهي:

١. الأمراء، والمراد بهم أمراء الأندلس وحكامها.

٢. الفرسان ومنهم سعيد بن جودي والصميل.

٣. الشعراء والمراد بهم الشعراء الذين تفرغوا لقول الشعر وانصرفوا إليه.^١

وإذ يقرر بدير متولي حميد قلة مصادر الشعر الأندلسي في عصوره الأولى، وقلة الدراسات فيه، وغلبة السمة المشرقية عليه، يؤكد لنا أن ظروف الأندلس الأولى كانت صارفاً للعرب عن الاتجاه نحو البيئة الجديدة، فلم يحسوا جمالها ولم يتأثروا بها.^٢ ومن هنا يخلص الباحث إلى صورة مصغرة للأدب الأندلسي. بشكل عام. في عصوره المتقدمة وهذه الصورة ستوضح أبعادها كلما وقفنا على مزيد من النصوص، والوثائق التي لم يصل منها إلا التزر اليسير.

وفيما يلي سنتوقف عند أبرز ثلاثة شعراء في هذا العصر هم:

١. عبد الرحمن الداخل ٢. يحيى الغزال ٣. ابن عبد ربه.

١. عبد الرحمن الداخل (١١٢. ١٧٢هـ):*

إذا كان الشعراء يحتاجون إلى تعريف، فمن من أبناء العربية لا يعرف الأمير الشاعر، وقد ذاع من أخباره وأنبائه، ما سار مسار الأمثال، في مضممار الشجاعة واللباس؟

نشأ في كنف جده هشام بعد موت أبيه معاوية، وهو صغير السن، وما كاد يشب عن الطوق، وقبيل بلوغه سن العشرين حتى سقطت دولة الأمويين، وأخذ العباسيون يتعقبون من بقي من بيت الحكم الأموي، وفر عبد الرحمن بسبب ذلك إلى المغرب، ثم أخذ يوطد لنفسه الأمور، ويستعيد مجد آبائه حتى تكلفت محاولته بالنجاح بعد حوالي خمس سنوات من فراره وذلك سنة ١٣٨هـ.

لقد روى عبد الرحمن قصة فراره من الموت الزؤام، حين قدم بنو العباس يبحثون

١ ابن حمديس الصقلي حياته من شعره، د. سعد إسماعيل شلبي، ص ٣٤، مكتبة غريب، ١٩٧٧.

٢ قضايا أندلسية، ٧.

* ينظر في ترجمته: أخبار مجموعة، ٤٩ وما بعدها. الحلة السراء، ٣٥/١. ٤٢. البيان المغرب، ٤٧/٢. ٦١. تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، ٨٣. ٨١/٤.